
من «نحن»؟
ألمانيا ومسلموها
نافيد كرماني
©Isolde Ohlbaum

من «نحن»؟

من «نحن»؟

ألمانيا ومسلموها

تأليف
نافيد كرماني

ترجمة
د./ صلاح هلال





Wer ist Wir?

Navid Kermani

من «نحن»؟

نافيد كرماني

الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ-٢٠١١م
رقم إيداع ٢٠١٠/١٩٣٦٩
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

قام معهد جوته بدعم ترجمة هذا الكتاب بتمويل من وزارة الخارجية الألمانية.

نافيد، كرماني
من «نحن»؟: ألمانيا ومسلموها / نافيد كرماني . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١١.
١٢٦ص، ١٤,٥×٢١,٠سم
تدمك: ٤ ٧٣ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- المسلمون في ألمانيا
أ- العنوان
٣٠١,٤٥٢٩

The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs.

المحتويات

إهداء المؤلف

وفاءً لذكرى الأستاذ عبد الجواد فالاتوري (١٩٢٦–١٩٩٦)

الفصل الأول

التنقُّل فيما بين الحدود

أستطيع أن أتذكر جيدًا التنقل فيما بين الحدود في طفولتي. فوق الجبل الذي كُنا نسكن أعلاه لم يكن يُميزني، كغريب في الشارع، عن بقية الأصدقاء سوى اسمي وشعري الأسود. حتى لغتي الألمانية كنت أتكلمها باللهجة المألوفة لمنطقة الجبال الوسطى التي كنا نعيش فيها، وكنت أنطق حرف الراء المتحرك بالطريقة المميزة لها أيضًا. إلا أنني عندما كنت أذهب إلى البيت، كان الأمر يبدو وكأنني قد عبرتُ حدودًا ما. ما بين خطوة وخطوة كانت اللغة تتبدّل وطريقة تصرفي تتغير؛ إذ كنت أتبع قواعد سلوكية مختلفة، ودون أن أعي ذلك أو أشعر بأنه مشكلة كنت أجدني مُحاطًا بأشكال وروائح وأصوات وأشخاص وألوان ليست موجودة خلف عتبة البيت.

مع أن هذه الأمور المختلفة كانت مألوفة لي مثل بشرتي، فإن هذا العالم كان له أثر سحري على أصدقائي، إن لم أكن مُخطئًا في تصوري، وكان انبهارهم بهذا العالم يتضح في تفضيلهم اللعب في بيتنا. ربما كان السبب في ذلك هو الفضول الذي يبعثه الغريب، وربما كانت تلك القوانين المختلفة التي سادت في عالمنا والتي كانت أكثر مرونة لنا ونحن أطفال. لم تكن هناك غرف ممنوع علينا دخولها، ولا مواعيد مُحددة للطعام، ولا والدان يتدخلان في كل شيء، فقط بضعة إخوة لم يمثلوا إزعاجًا قط لأنهم كانوا يكبروننا سنًّا ولديهم أمور شائقة تشغلهم عنّا مثل: الصديقات والحفلات وكرة القدم وموسيقى الروك. عدا ذلك كان البيت والحديقة ملكنا. لا أعرف — ولم أفكر وقتها أيضًا — إن كانت ظروف حياتنا إيرانية تقليدية، ولكنها على أي حال كانت مختلفة عن حياة أصدقائي الذين كانوا يشعرون بذلك الذي

كنت أشعر به. وقد كبرت وكبر معي هذا الوعي بأنه يوجد هذا وذاك في الداخل والخارج، واليوم لدي شعور بالفخر بأن هذا الأمر ميَّزني عن أقراني. لم أحتج قط إلى توضيح أن ما هو موجود ليس كل شيء. لم يكن هذان العالمان منفصلين أحدهما عن الآخر انفصالًا تامًّا، إذ كان يوجد لقاء في أول يوم في المدرسة، واحتفالات بأعياد ميلاد الأطفال، وأيام مخصصة ليقابل أولياء الأمور المدرسين، وزيارات من والدَيّ في ساحة كرة القدم، وفي كل تلك المناسبات كانت تختفي الخطوط الفاصلة. كنت أتكلم الألمانية وفي الجملة التالية عندما أوجه الحديث إلى والدَيّ كنت أتكلم الإيرانية بلهجتي التي تجمع ما بين أصفهان الإيرانية وزيجرلاند الألمانية. كان ذلك في بعض الأحيان غريبًا، لكنني كنت أجده أمرًا عاديًّا: فعلى سبيل المثال كنت أخاطب والديَّ بصيغة «حضرتك» وليس «أنت»، وهو الأمر الذي لم يعد ممكنًا فعله دون أن يتعرض المرء لسخرية الآخرين، لذلك كنت أجتنب آنذاك مخاطبة والديَّ بالألمانية أمام الناس. كنت بطبيعة الحال أتحدث إليهما بالألمانية عندما يكون أصدقائي حاضرين وأكون مضطرًا إلى ذلك، إلا أنني لم أكن أخاطبهما لا «بحضرتك» ولا «بأنت»، كنت أبحث عن صياغات غير مباشرة، لأنني لو لم أفعل لاضطررت دون ارتياح لأن أخاطبهما «بأنت». ولكنني لم أكن لأخاطبهما «بحضرتك»، وخصوصًا في وجود أصدقائي. كيف كانا سينظران إلي لو قلت لهما: «بابا، تعال لتصطحبني من ملعب الكرة في تمام الثالثة؟» لم يتعلق الأمر بوجود إجبار على أن أخاطبهما «بحضرتك»، أو أنني كنت أود أن أخاطبهما «بأنت» ولكنهما لم يسمحا بذلك، بل كان الأمر طبيعة عندي مثل ارتداء البيجاما قبل النوم. ولم أجد في الأمر حرجًا أيضًا، لذلك لم أجعله سرًّا أنني أخاطب والدَي «بحضرتك». أذكر أنني حدثت أصدقائي عن ذلك، ليس بوصفه اعترافًا بل أمرًا طريفًا. عندما أحاول اليوم استيضاح الأمر أكتشف أن طرافة الأمر تمثلت في أن المجالين — الداخلي والخارجي — اللذين تحدثت عنهما كانا يتداخلان معًا عندما كان والداي يتواجدان في ملعب كرة القدم أو فناء المدرسة، حيث كنت أضطر لاستخدام ميثاقَيْ شرف التعامل وطريقتيْ التصرف في الوقت نفسه، مع أنهما كانا في المعتاد منفصلَين أحدهما عن الآخر تمام الانفصال. لم يكن هذا هو الوضع

الاعتيادي، ولكنه لم يكن أيضًا وضعًا سيئًا، بل كان فقط في بعض الأحيان طريفًا بعض الشيء.

لا أريد أبدًا ادعاء أن كوني غريبًا لم يمثل لي يومًا مشكلة، فقد كان هذا لا يمثل مشكلة كبيرة بصفة خاصة، فقد كنت على سبيل المثال أقل تنظيمًا من باقي الأطفال، وكنت أشعر أن هذا يتعلق بوالدَي بصورة أو بأخرى، فلم تكن حقيبتي المدرسية يومًا مرتبة مثل حقائب أقراني، ولم تحظَ كراساتي بنفس الاعتناء الذي تمتعت به كراسات زملائي، ولم يكن لي يومًا عُلب طعام مدرسية جميلة مثل أصدقائي الألمان. كانت أمي تضع شطائري في الأكياس البلاستيكية التي تُحضر فيها ما تشتريه من الصيدلية مثلًا أو من محل مستحضرات التجميل. ذكرت من قبل أن حياتنا اليومية في البيت لم تكن تسير تبعًا لنظام دقيق وخطة زمنية محددة مثل أصدقائي، والأمر الذي كنت أراه جيدًا هو تمتعي بحرّيات أكثر منهم، إلا أني كنت أرى في ذلك عيبًا أيضًا في بعض الأحيان. كنت أتمنى في بعض الأوقات أن أحصل على شطائر موضوع عليها الزبد بدقة، ومُقطعة وكأنها قيست على المسطرة، وأن يكون لي أيضًا عُلب طعام مدرسية جديدة، ولكن لم يكن من الواقعي تمامًا أن أنتظر ذلك من أمي، ويتعلق هذا أيضًا بحقيقة أننا أتينا من ثقافة أخرى لا تعرف هذا النظام ولا هذه الدقة، ولا تعرف أيضًا تلك النظافة التي تشبه نظافة المستشفيات، وهذا التنظيم الدقيق لليوم. لذلك كانت تمر بي أحيانًا لحظات أرى فيها في اختلافي هذا عائقًا، إلا أن تلك اللحظات لم تكن مؤثرة جدًّا. في سن السابعة كنت أشعر بأن هندسة السندوتشات تلك أمر مهم إلا أنه ليس بالأمر الأساسي.

فكرة أن الناس يمكن أن يعيشوا في الوقت نفسه في ثقافات وولاءات وشخصيات ولغات مختلفة ما زالت تُثير الدهشة في ألمانيا حتى اليوم على ما يبدو، على الرغم من أن تاريخ الثقافات يُثبت أن هذه كانت غالبًا القاعدة وليس الاستثناء. في إمبراطورية هابسبورج أو في الدولة العثمانية، وحتى وقت قريب في مدن مثل سمرقند أو سراييفو، وحتى اليوم في أصفهان أو لوس أنجلوس؛ كانت أو ما زالت المجتمعات التي تتواجد بصورة متوازية لا تمثل شبحًا مفزعًا، وإنما أتاح الوضع للأقليات أن تعيش — إلى حد

ما — دون مضايقات، وأن تحافظ على ثقافتها ولغتها. دون ذلك ما كنا لنجد اليوم مسيحيين في الشرق الأوسط، أما تلاشي تلك المجتمعات الذي نراه اليوم فإنه يتعلق بتلك النزعة المشئومة لدى مجتمع الأغلبية أحيانًا وأحيانًا أخرى لدى القائد أو بضع مئات من الإرهابيين لإنشاء مجتمع موحَّد واستئصال المجتمعات الثقافية الصغيرة.

لا يمكن قصر هذه النزعة على العالم الإسلامي أو البلقان أو أفريقيا السوداء؛ إذ إنها قد شملت حتى الدولة التي تُعتبر أم التعددية الثقافية: الهند. في عام ٢٠٠٢ حدثت أعمال شغب في ولاية جوجارات الهندية قُتل فيها ٢٥٠٠ مسلم، ثم اتضح بعد ذلك أن الأمر لم يكن أعمال شغب بل مذبحة أُعد لها مسبقًا بدقة وبتنظيم جيد. من السهل عن طريق النقود والخمور تحريك الغوغاء في الهند، لذا فإن أعمال العنف ليست غريبة على المجتمع. الأمر الغريب كان حجم العنف، وأكثر من ذلك حقيقة — والصحافة الهندية تتحدث الآن عن ذلك — أن الحكومة في جوجارات قدمت دعمًا فعليًّا لهذه المذبحة، فقد وقف رجال الشرطة لأيام يشاهدون المذبحة دون أن يحركوا ساكنًا، والأسوأ من ذلك أنهم في أماكن كثيرة أجبروا الأشخاص الذين حاولوا الهروب على الرجوع إلى حيث احتشدت الغوغاء. بعض أعضاء البرلمان من حزب بهاراتيا جاناتا الحاكم، بل أعضاء في مجلس الوزراء أيضًا؛ كانوا يعطون تعليمات عن طريق هواتفهم النقالة لتحديد الحي التالي الذي يجب أن يُهاجَم من الأحياء التي يقطنها مسلمون. التحقيقات التي أجريت لاحقًا ضد المشاركين في المذبحة ذهبت جميعها سُدى.

لا يُعد حزب بهاراتيا جاناتا حزبًا صغيرًا متطرفًا؛ إذ إنه يحكم عددًا من الولايات الهندية، بل كان قبل وقت قليل هو الحزب الذي يسمي رئيس الوزراء في العاصمة دلهي، وقد يرجع الحزب بعد الانتخابات البرلمانية المقبلة ليعتلي سدة الحكم مرة أخرى. بجانب حزب كونجرس بارتاي العلماني يمكن اعتبار حزب بهاراتيا جاناتا ثاني أكبر قوة سياسية في البلاد. ومن الجدير بالذكر أنه يمكن — ولأسباب وجيهة — اعتبار حزب بهاراتيا جاناتا حزبًا أصوليًّا متطرفًا، بل إن بعض المثقفين الهنود مثل أروندهاتي روي يصفونه بالحزب الفاشي. عندما نقرأ الأخبار يمكن أن نعتقد أن الهند يتهددها خطر

التطرف الداهم، بيد أن الانطباع داخل البلاد مختلف تمامًا عن ذلك. يوجد بالطبع متطرفون، بل إنهم يشكلون الحكومة في جوجارات التي يسكنها ما لا يقل عن ٦٠ مليون نسمة. ووضع الأقليات الدينية هناك — والمسيحية أيضًا — وضع يؤسف له، غير أن التطرف لا يطبع حياة الهنود، ولا يستطيع أن يحصل على أغلبية الأصوات في الانتخابات الوطنية. ما زالت الخطوط الفاصلة بين الهندوسية والإسلام والأديان الأخرى في العادة أكثر تداخلًا مما يمكن للقادة الدينيين في القاهرة أو في روما تصوره على الإطلاق، حتى إن حزب «جي بي جي» في حد ذاته لا يُعد أصوليًّا على إطلاقه؛ إذ يعتبر في جوانب عريضة منه حزبًا برجماتيًّا واقتصاديًّا ليبراليًّا على الرغم من كونه محافظًا. نفس هذا الحزب — حزب جي بي جي — الذي تولى في جوجارات الإعداد الأيديولوجي لمذبحة ضد المسلمين ودعمها عمليًّا هو نفسه الحزب الذي انتخب مسلمًا في عام ٢٠٠٢ ليعتلي كرسي الرئاسة في دلهي. حتى ساسة حزب جي بي جي أنفسهم الذين وقفوا وراء المذبحة في عام ٢٠٠٢ يظهرون اليوم في مظهر المعتدلين، ربما ليس لأنهم قد تطهروا مما كانوا عليه، ولكن لاكتشافهم أن شعارات الهندوسية المتطرفة لن تقودهم إلى النجاح في أي انتخابات ولا حتى في جوجارات. الأمر الذي اكتشفته في رحلاتي المتعددة إلى الهند لم يكن انتشار الأيديولوجية الأصولية العنيفة، ولكن شيء آخر أقل بكثير في ظهوره إن لم يقل في معناه: اكتشاف وإعادة تكوين ما يمكن اعتباره أمرًا خاصًّا، والطموح في تحقيق التجانس والنقاء وعودة النزعة إلى القيم الذاتية.

إننا لا ندرك الأصولية أو حتى عودة الأديان في المعتاد إلا إذا ارتبطت بمطالب سياسية أو بممارسة عنف مادي. تُعد الأصولية في عمومها ومنذ بداياتها في القرن العشرين — سواء في الشرق الأوسط أو في جنوب آسيا أو في الولايات المتحدة الأمريكية — حركة تربط الفرد بنظام محدد المعالم لمجموعة تختلف عن المجموعات الأخرى اختلافًا حاسمًا، وليس من الضروري أن يتسم هذا الاختلاف بالعنف. وتصورات الحياة الأصولية جذابة لأنها تُمد الأشخاص بالأشياء التي يفتقدونها بشدة في العالم الحديث المتعولم: الوضوح والقواعد الملزمة والانتماءات الثابتة؛ أي الهوية.

بالنظر إلى نشأة الهند وحركة استقلالها فإنها تعد دولة لا تتسم بالتجانس، بل بالتعددية واختلاف ثقافاتها ولغاتها وأديانها، ولكن فجأة بدأت محطات التلفاز تهتم بإظهار أن برامجها لا غبار عليها من الناحية الدينية، وتقوم بالدعاية لأماكن سكنية بوصفها تمتاز بعودة الحياة في انسجام كما تراها الديانة الهندية وتعاليمها القديمة في «أسفار الفيدا» و«سفر الفيدانتا». إن مفهوم الحياة الذي تعبر عنه هذه الإعلانات لا تحركه الكراهية؛ إذ إن الكراهية لا تتسق مع تلك الصور المتمناة التي ترسمها صناعة الدعاية الحديثة، وإنما يقف وراء تلك الإعلانات الرغبة في تأكيد الذات والارتباط بالقيم والتدين. على خلاف العلمانية الراسخة التي اتسم بها مؤسسو الدولة الهندية، وعلى خلاف التعددية الأصيلة في شبه القارة الهندية التي يمكن لأوروبا أن تتعلم منها حتى اليوم، فإن أعدادًا متزايدة من الهنود يتطلعون لوجود حضارة هندوسية موجِهة يمكن في ظلها للمسلمين أو المسيحيين أن يصبحوا نجومًا سينمائيين أو قادة اقتصاديين أو حتى سياسيين بارزين، إلا أن هؤلاء النجوم السينمائيين والسياسيين البارزين عليهم ألا يمارسوا طقوسهم الدينية في العلن بينما يتزايد الظهور الهندوسي مع كل قافلة حجيج تصورها كاميرات التلفاز.

كم هي مألوفة لي تلك التطورات! عندما كنت أتحدث إلى رجال أعمال من الذين اكتشفوا دينهم مجددًا، أو أتابع مناقشات حول مدى تعرض ثقافة المجتمع للتهديد، أو أتصفح مجلات يتفاخر نجوم التلفاز على صفحاتها بتدينهم، أو حتى عندما كنت أتجول في المدن وخصوصًا الأحياء الشعبية؛ كنت أجد أحيانًا وأنا في مصر أو إندونيسيا أو في وسط الولايات المتحدة الأمريكية نفس الشعارات الدعائية الدينية المبالغ فيها، ونفس المحطات التلفزيونية الدينية، ونفس نمط الوعظ الديني المنمق والمتفائل؛ قصص التوبة واعتراف نجوم التلفاز الشباب بمدى عظم وحقيقة ثقافة مجتمعهم. ودائمًا التأكيد على أن المرء لا يكنّ شيئًا ضد الأشخاص أو الأديان الأخرى، وإنما يسترجع فقط دينه وثقافته.

إن الهوية في حد ذاتها شيءٌ مبسِّطٌ؛ شيءٌ محدِّدٌ مثلها مثل أي نوع من أنواع التعريفات؛ إنها تحديد لما هو في الحقيقة أكثر تنوعًا واختلافًا

وتداخلًا. بداية هذا ليس سيئًا، فهو أمر عادي. أقول مثلًا عن نفسي: أنا مسلم. الجملة حقيقية، ولكني حين أقولها أغفل في الوقت ذاته ذكر ألف شيء آخر من الأشياء التي أتصف بها أو أفعلها، والتي ربما تتعارض مع انتمائي الديني، كأن أكون مثلًا أكتب كتبًا صريحة عن الحب الجسدي أو أؤيد المثلية الجنسية. يُعد هذا تناقضًا، فالإسلام يرفض المثلية الجنسية، والقرآن لا يؤيد سرد الحكايات عن الجنس. ربما يمكن إيجاد تفسيرٍ ما يجعل المثلية الجنسية أو وصف الأعمال الجنسية حلالًا من منظور الإسلام، إلا أن هذا الأمر لا يشغلني، فليس لكل ما أفعله علاقة بديني. أرى أنني لا أشعر بأني مقيد في إسلامي تمامًا بسبب مثل هذه الأعمال أو الآراء. ربما يبدو ذلك تناقضًا، ولكنني كبرت مع هذا التدين ومع كل هذه الاختلافات والخروقات والتناقضات. لم يكتب أحد من أسلافي حسب علمي حكايات عن الجنس، إلا أنهم كانت لديهم عادات لم تكن جميعها متفقة مع ما يجب أن يكون. كان بعض أقاربي المسنين مواظبين على أداء الصلاة، إلا أن هذا لم يُثنهم عن تناول كأس الفودكا المسائي. لم يخطر ببال أحد أن يشكك في انتماء مسلم للإسلام لأنه يشرب الخمر، كما لا يمكن لأحد أن يحاول تبرير شرب الخمر تبريرًا إسلاميًّا. الأمر الذي كان مفقودًا هو الوضوح.

سيقول الأصولي: لا يصح هذا، المسلم إما هكذا أو هكذا، أما الآخرون فليسوا مسلمين. والخبير التلفزيوني الألماني يقول لي: أنت لست مسلمًا «حقيقيًّا»، وإنما لحسن الحظ مسلمٌ «معتدلٌ» فقط، لأن المسلم الحقيقي يرفض الديمقراطية، ويرغب في توحيد الدين والدولة، ويعتبر القرآن قانونًا إلهيًّا غير قابل للتغيير أو التعديل. وأنا أرد عليه معارضًا بأمرين: أولًا: أنا أرى وبشدة أن اعتقادي «حقيقي»، وثانيًا: أرجو من الأصولي وخبيره التلفزيوني الألماني أن يتجولا مرة في دولة إسلامية (يجب ألا تكون بالضرورة المملكة العربية السعودية). يمكن تعريف الثقافة الإسلامية والشعر والعمارة والتصوف تحديدًا من خلال التناقض بينها وبين ما يُسمى بالدين الحق، كذلك يمكن تعريفها من خلال إمكانية وجود هذا التناقض وأن المجتمع يتقبله، كما هو الحال في جميع الثقافات الأخرى ولا سيما في الغرب: على المرء فقط أن يطوف مرة في أرجاء كنيسة سيستينا حتى تصيبه الدهشة

من وجود الملذات الحسية التي تبدو غير مسيحية، والشهوات الصارخة التي لا تتقبلها الكاثوليكية فحسب وإنما تضعها في مركزها. كما هو الحال في الإسلام، فإن المسيحية دائمًا أيضًا عكس ما يعرِّفه رجال الدين على أنه مسيحي.

نعم، أنا مسلم، لكني أشياء أخرى كثيرة أيضًا. إذن فجملة «أنا مسلم» تكون خطأً — بل تحمل أيديولوجية — عندما أعرِّف نفسي على أنني مسلم فقط، أو يعرِّفني أحد على أنني مسلم وحسب. لذلك فإنه ليزعجني جدًّا أن مُجمل الجدال الدائر حول الاندماج يختصر الأمر كثيرًا إلى قضية مع أو ضد الإسلام، كما لو كان المهاجرون ليسوا أكثر أو أقل من مسلمين، ويترتب على ذلك إغفال جميع الصفات والعوامل الأخرى التي لها أهمية أيضًا: من أين ينحدر هؤلاء المهاجرون؟ وأين نشئوا؟ وكيف تربَّوا؟ وماذا تعلموا؟

لقد أشرت بالفعل إلى أني كنت مدركًا لاختلافي عن الآخرين في المدرسة أو بين أصدقائي، وكذلك كان أصدقائي يدركون أني قد أتيت من بلد آخر، إلا أن الأمر لم يكن فيما أرى أمرًا عظيمًا أو مؤرقًا، لم أكن أشعر بعدم الارتياح لهذا السبب أو بالاضطهاد، أو بتعبير آخر: كوني غريبًا كان في رأيي معلومة وليس حالة. لم يكد يوجد في سلوكي شيء يميزني عن الأطفال الآخرين، أو ربما كان يوجد القليل جدًّا مما كنت أربطه بكوني أجنبيًّا.

كان هذا الوضع في المدرسة، لكنه لم يكن الوضع في كل مكان. اشتركت في اتحاد كرة القدم في سن السادسة، وظللت ألعب فيه حتى حصولي على الشهادة الثانوية: تدريبان في الأسبوع، ومباراة بطولة في عطلة نهاية الأسبوع. عندما أسترجع تلك الفترة يجب أن أقول إنها كانت من أهم وأكثر الخبرات تأثيرًا عليَّ في حياتي؛ فقد تعرفت في اتحاد الكرة على عالم جديد علي، كانت أول غربة لي: لقد نشأت وترعرعت في وسط اجتماعي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة العليا، وكان معظم أطفال الجيران في مدرستي الابتدائية ينحدرون من عائلات ميسورة الحال نسبيًّا، لم يكونوا أغنياء جدًّا، ولكن لم يكن يسكن في منطقتنا تقريبًا أي من أبناء العمال أو أبناء العاطلين عن العمل أو الفقراء، ومن ثم لم يوجد أيضًا أبناء «عمال وافدين»، والأجانب القليلون الذين عرفتهم أو قابلتهم بين الجيران كانوا جميعهم مثلنا أبناء

عائلات أطباء إيرانية. بينما كنت على خلاف ذلك في فريق كرة القدم الوحيد الذي يسكن أعضاؤه في حي يُعد من أحياء الأغنياء، أي أن جميع زملاء الاتحاد كانوا ينتمون إلى طبقة اجتماعية أخرى. كنت أشعر بهذا الفرق بيني وبينهم دون أن أستطيع تسميته، فعلى سبيل المثال كانت لهجة التعامل أكثر خشونة، وآباء الآخرين وأمهاتهم لم يكونوا يركبون السيارات المرسيدس بنز، بل السيارات الأوبل ريكورد أو الرينو أربعة. أقل سيارة كان أحد الآباء يقودها عندنا فوق الجبل كانت أوبل سيناتور، وأفخم ما كان والد أحد زملائي في الاتحاد يقوده كانت سيارة فورد تاونوس، هذا إن كانت لديهم سيارة من الأساس. عندما يكون الفرد بالغًا وراشدًا فقد يبدو هذا الأمر غريبًا، ولكنني وأنا في السادسة كان مهمًّا أن أعرف أن امتلاك السيارة ليس أمرًا بديهيًّا، وأن هناك أطفالًا لا تملك عائلاتهم سيارة. وهؤلاء الأطفال الذين لا يوجد في المعتاد ما يربطني بهم أصبحوا عن طريق الاستمتاع المشترك بكرة القدم زملاء أزورهم في بيوتهم ويزورونني في منزلنا العائلي. إلا أن الأمر لم يستغرق طويلًا حتى أصبح وضع والديَّ المالي الجيد لا يمثل ميزة في اتحاد الكرة، وكان الوضع فيما أرى أشبه ما يكون بالمحرج لأنني شعرت لأول مرة أنني لا أنتمي حقًّا للمجموعة، على الأقل في البداية.

في المعتاد كانت والدتي تأخذني إلى التدريب، أو يوم السبت إلى مكان عقد المباريات أو على الأقل إلى نقطة الالتقاء، حيث نتقابل لننطلق معًا إلى المباريات الخارجية. حينها لم يكن الاختلاف ملفتًا، لأن أمي كان لديها سيارة فولكس فاجن. ولكن عندما كان أبي يوصلني بسيارته البنز، كان هذا يبدو غريبًا. فضلًا على ذلك كانت هناك كلمات أو جمل معينة أعرفها لكنني لا أستخدمها، وكان يوجد أيضًا أسلوب يتقنه الآخرون لكني لم أتقنه؛ كانوا أجرأ مني، أو على الأقل هذا ما ظننته، كانوا أكثر رجولة كما لو كانوا رجالًا حقيقيين. لو لم أكن أجيد اللعب لواجهت مشاكل بسرعة، ولكن لحسن الحظ كنت ألعب جيدًا جدًّا. كان لي مكاني الثابت، ولذا تقبلني الآخرون. كان بيننا عادة اثنان أو ثلاثة ممن لم يحظوا بقبول الآخرين، ولذا لم يكونوا يستمرون طويلًا، وهؤلاء دائمًا لا يصمدون في الملعب. أي أن الاعتراف الاجتماعي كان يتحدد بالدرجة الأولى عن طريق الإنجاز، وكان

هذا أمرًا شاقًّا إلا أنه لم يكن غير عادل، فقد كنا في آخر الأمر لاعبي كرة قدم. لم أشعر إذن بأنني غريب عن المجموعة، وبعد أن أصبحت واحدًا من أعضائها لم أشعر تمامًا بأنني مستبعد بسبب نشأتي الاجتماعية. إلا أنني بقيت غريبًا، ليس لأنني مسلم، ولكن لأنني من بيت ميسور الحال له وضع اجتماعي. عندما كنت أزور هذا أو ذاك من زملاء الفريق، كنت أشعر أن زيارتي لهم رحلة إلى الخارج.

كثيرًا ما يشتكي البعض من قلة رغبة المسلمين في الاندماج في المجتمع الألماني. ومَن يلاحظ مستوى الأداء السيئ لكثير من أطفال الأتراك عند دخولهم المدرسة، أو يعرف وضع كثير من الأمهات التركيات اللاتي يكدن لا يشاركن في الحياة العامة؛ فلن يعتبر تلك الشكوى ببساطة من باب معاداة الأجانب. إلا أن الأسباب تبدو لي — على الأقل جزئيًّا — بسيطة: معظم المسلمين في ألمانيا — وهم من الأتراك — ينحدرون من مناطق ريفية قليلة التطور، وهذا ينسحب على جيل المهاجرين أيضًا، أي أن هجرتهم إلى ألمانيا كانت بمنزلة رحلة كبيرة عبر الزمن. إن صعوبات التعود على الحياة في عالم المدينة الصناعية، وآليات الدفع النفسي التي تأتي كرد فعل على تلك الصعوبات؛ تكون إلى حدٍّ بعيد هي نفس الآليات التي يمكن ملاحظتها في ظاهرة الهروب من الريف إلى الحضر في العالم الإسلامي.

ليست كل المشاكل التي تظهر في الحياة مع المسلمين — المجتمعات المتوازية وانحدار المستوى التعليمي والتمييز ضد المرأة — لها أسباب دينية، إذ إن جزءًا كبيرًا من تلك المشاكل لا يمكن تفسيره تفسيرًا دينيًّا، لأن له أسبابًا اجتماعية. وهذا يعني أيضًا أن جزءًا كبيرًا من هذه المشاكل لم يكن ليظهر لو كان معظم المهاجرين المسلمين قد جاءوا من مُدن. لذلك يلاحظ البعض متعجبًا أن المهاجرين الذين أتوا من لبنان أو إيران، والذين يبلغ عددهم الملايين على مستوى العالم، يدخلون عادة في صفوة أهل العلم والاقتصاد في وطنهم الجديد. ففي ألمانيا وفي دول غربية أخرى يمثل الإيرانيون أكبر حصة من الأكاديميين مقارنة بجميع شرائح السكان الأخرى، وهذا لا يرجع بالتأكيد إلى ارتفاع مستوى ذكائهم عن المتوسط (وهذا ما يؤكده المواطنون الإيرانيون دائمًا)، ولا إلى ابتعادهم عن الدين (وهذا ما يدعيه كثيرًا المواطنون

الألمان عندما يعتبرون المسلمين، الذين لا يربطون عقيدتهم بمظاهر خارجية أو قواعد، غير متدينين)، والسبب في ذلك هو ببساطة انتماؤهم في وطنهم القديم إلى تلك الطبقة المتميزة. إذن فليس من العجيب ألا تواجههم مشاكل في التأقلم مع محيطهم الاجتماعي الجديد إذا نظرنا إلى محيطهم القديم، إذ إنه يشبه الجديد إلى حدٍّ بعيد.

وأنا طفل كنا نسافر كثيرًا في الصيف إلى أصفهان لزيارة أقاربي، ولأننا كنا نقوم بذلك دائمًا كنت أجده أمرًا عاديًّا، كما كان عاديًّا أن يقضي الآخرون الصيف على ساحل بحر الشمال. ولم أكن أشعر بأنني «عُدتُ» إلى وطني، كما لم أكن أشعر بأني غريب هناك. طرق التعامل والعادات المتبعة عند أقربائي كانت في مجملها نفس الطرق والعادات المتبعة في بيت والدي في ألمانيا. كان هذا ينطبق على احترام الأكبر سنًّا، وهو الأمر الذي كان ملزمًا لنا ونحن أطفال، كذلك كانت أيضًا أحداث اليوم التي لم تكن منظمة دقيقة بدقيقة، فضلًا على الحريات التي كنا نتمتع بها ونحن أطفال. أعرف اليوم أن تلك الألفة التي شعرت بها كانت تتعلق أيضًا بالوسط الاجتماعي لأقاربي، فقد كان جميع أعمامي وأخوالي أطباء أو يعملون في مجال مشابه، لذا كنت أعيش لديهم في نفس المستوى الاجتماعي للطبقة المتوسطة العليا، وكان لديهم غرف طعام وأرائك وغرف أطفال وأجهزة ستيريو وأجهزة تجميد وسجاد وأصابع البطاطس المحمرة وعرائس بيج جيم. كنت أعيش في محيط يشبه تمامًا بيتنا في ألمانيا. ولكن عنما كنا نخرج للتجول في المدينة وفي السوق وفي الضواحي، كان هذا بمنزلة عالم آخر؛ الصناع والتجار والأطفال الصغار بأحذيتهم المثقوبة، والأمر الوحيد الذي كنت أشاركهم فيه هو اللغة، والفرق الذي كنت أجده مأساويًّا بصورة خاصة كان يتضح عندما نسافر إلى أرضنا الريفية يوم الجمعة، ففي كل مرة كنت أُفاجأ بأن بيت الرجل الذي يرعى لنا الأرض خالٍ من الأثاث، كان الجميع يجلس على السجادة. وكان له أيضًا أطفال في مثل عمرنا، إلا أنه لم يخطر ببالنا قط أن نلعب معهم. هناك كنت أشعر بأنني خارج بلادي، ولم أكن وحدي الذي أشعر بذلك بل أيضًا أبناء وبنات عمومتي الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة في أصفهان. كان هذا الموقف يشبه ما

حدث وقتها عندما دخلت في اتحاد كرة القدم، ولكنه كان أكثر حدةً لأن الفوارق الاجتماعية في إيران أشد حدة منها في ألمانيا.

لماذا أحكي هذا كله؟ لأني أريد أن أقول إن هناك فوارق أخرى يمكن أن تكون في معظم الأحيان أكثر تأثيرًا من لون البشرة أو الدين. وكذلك لأني أفكر في أن الفقر أو الغنى والمدينة أو الريف ومتعلم أو غير متعلم — على سبيل المثال — كلها عوامل تجعل الإنسان — إذا لم يكن يعيش في دولة عنصرية — يتعرض للتمييز أو يتمتع بالتفضيل أكثر من عاملَي الجنسية والعقيدة. أنا لا أدعي أنه لا توجد صراعات ثقافية، ولكني أعتقد أن أكبر عامل فاصل في المجتمع أو بين المجتمعات المختلفة لا يزال العامل الاقتصادي، حتى إن تزايد التعبير عن الصراعات الثقافية باستخدام مفردات ثقافية ودينية. إن الأفق الفكري والاجتماعي وحتى الديني لعائلة برجوازية في الرباط أو كوالا لامبور أو ريو دي جانيرو، مثل الكتب والموسيقى والأفلام والبرامج التلفزيونية والموضوعات التي تُناقَش في إطار من الخصوصية والسيارات وقطارات الأنفاق والأفكار السياسية المتشددة والمخدرات والمهن والعلاقة بين الجنسين وحاليًّا أيضًا وجبات الطعام؛ هذا الأفق أقرب إلى أفق أسرة أوروبية من نفس الوسط الاجتماعي مقارنة بأفق فلاح أو أحد قاطني الأحياء العشوائية الذي يسكن على بُعد عدة دقائق بالسيارة. لا أقول هذا مادحًا في حياة المدينة أو التقدم التكنولوجي، بل العكس هو الصحيح: هذه النتيجة تشتمل على شيء من التعميم، بما يجعل الصور القديمة المفزعة لصناعة الثقافة وللحياة الحديثة فيما يشبه القطيع تبدو وكأنها رومانسية. إلى جانب أنها لا تغفل حقيقة أن التطرف السياسي، سواء أكانت صبغته قومية أم اجتماعية دينية، في كل الأحوال تقريبًا ينشأ ويقوى في المدن الكبيرة. ينطبق هذا بوجه خاص على الإسلاماوية التي لا يقل تأثر أتباعها بالثقافة الغربية عادة عن تأثر معارضيهم العلمانيين بها أو تأثر قادتها المثقفين الذين كثيرًا ما يستندون بصورة مباشرة إلى كُتَّاب غربيين من مناهضي التنوير أو من كتاب ما بعد الحداثة. ربما تقوي عملية تعميم نماذج الحياة تلك الطموح في التشبث بما يتبقى من الصفات أو حتى بما يُتخيَّل منها.

إننا نميل بالطبع إلى التحديدات والترتيبات؛ أي التعريفات. يُعرِّفني شخص آخر على أنني مسلم، أو ربما على العكس من ذلك يُعرِّفني من وجهة نظره على أنني لست بمسلم حقيقي لأنني أفعل هذا الأمر أو ذاك، مما يتعارض مع الإسلام في رأيه. وأنا لا أنكر تمامًا وجود التناقض، وأقول فقط إننا كلنا متناقضون أيضًا، فكل شخصية تتركب من عدة هويات مختلفة ومتغيرة. وإذا تصور المرء أن يتصرف في كل ما يفعل أو يفكر أو يشعر بوصفه ألمانيًّا، فقط بوصفه ألمانيًّا وهو يتصرف أو يأكل أو يحب، أظن أن هذا سيكون أمرًا فظيعًا.

فقبول هذا الأمر أو ذاك هو إذن أمر طبيعي. يبدأ الخطر عندما تكون هوية واحدة هي المحدِّدة، عندما يصبح المرء فقط مسلمًا أو مسيحيًّا أو ألمانيًّا أو إيرانيًّا أو حتى من مشجعي أحد نوادي كرة القدم أو أحد نجوم موسيقى البوب. عندها يتحول هذا التحديد البرجماتي الذي يختصر جميع إمكانات التعريف إلى تشويه حقيقي للشخصية. والأمر الذي يدعو أكثر إلى التفكير هو أن إيجاد الشخصية يحدث من خلال وضع حدود تميزها عن الهويات الأخرى. لا يوجد ما هو ذاتي إلا إذا وجد ما هو آخر. وهذا يُعد أيضًا أمرًا عاديًّا. وهنا تحديدًا، عند تشكيل ما هو ذاتي للمرء وما يتصف به الآخرون، يكمن العنف. فالأرمن في إيران، على سبيل المثال، الذين كانوا يرون أنفسهم كأمر بديهي إيرانيين، وجدوا أنفسهم فجأة مع قيام الدولة الإسلامية مستبعدين من الهوية الإيرانية. بالطبع أكد القادة الجدد على أن اليهود والمسيحيين لهم جميع الحقوق، إلا أنها قد أصبحت الآن حقوق أقليات. فالأمة نفسها أصبحت تعرف نفسها الآن عن طريق الإسلام.

هذا يشبه ما يحدث للمسلمين في ظل القومية الهندوسية. «نحن ليس لدينا أي شيء ضد المسلمين»، كثيرًا ما سمعت هذه المقولة في الهند. ولكن فجأة أصبح هناك «نحن» هندية وهذه الـ«نحن» ليست إسلامية، وفجأة أصبح هناك «هم» و«نحن» ليس لدينا شيء ضد «هم». كان هؤلاء المسلمون يشعرون حتى الأمس القريب بأنهم هنود مثلهم مثل الهندوس. وكم أسمع في ألمانيا قول «نحن» ليس لدينا شيء ضد المسلمين. أو كما يرد في جميع البرامج الحوارية عن الإسلام: كيف يمكن أن نتعامل «نحن» مع الإسلام،

هل يجب أن نشعر «نحن» بالخوف من المسلمين؟ ويبدو أن ضيوف البرامج الحوارية لا يفكرون تمامًا في أن هذه الـ«نحن» قد يندرج تحتها مسلمون أيضًا. لا توجد نية سيئة وراء ذلك، على الأقل ليس دائمًا. «نحن» معشر الألمان يجب أن نفتح حوارًا مع المسلمين، حسب قول أصحاب النوايا الحسنة. وهذا أمر يستحق الثناء، ولكن هذا يعني أيضًا لقرابة الثلاثة ملايين شخص في هذا البلد أن عليهم أن يفتحوا حوارًا مع أنفسهم.

الفصل الثاني

أيديولوجية برجوازية

مَن يتسوق في «هايبر وان» يجب أن يمتلك سيارة. يقع «هايبر وان»، مثله مثل غيره من مجمعات التسوق التي تنشأ حول القاهرة، على شارع متعدد الحارات يؤدي إلى خارج المدينة، ولا تجرؤ عربات «الكارو» التي تجرها الحمير على ارتياد مثل هذه الشوارع، بينما لا تزال جزءًا من صورة المدينة في وسط البلد. أما السيارات التي تكون في الغالب قديمة ومستهلكة التي تقف في مركن السيارات فتُظِهر أنها السيارة الأولى لمالكها. هذه الصفة الخارجية المميزة لتلك المجمعات، أما الصفة الأخرى فتتجلى في المسجد المبني على طراز «الحركة المستقبلية» الملحق بمبنى المجمع مربع الشكل. بدءوا في الولايات المتحدة الأمريكية في تزويد مجمعات التسوق بكنائس، وفي الهند بمعابد، حتى هذا الفرق بدأ يتلاشى مثل السيارات التي تزداد أناقة. المهم في الأمر هو معابد التسوق: هنا الخلاص، هنا الدخول إلى عالم ما وراء شاشة التلفاز. يوجد أمام مجمع التسوق تمثال لعربة تسوق بحجم بيت سكني. تكاد جميع النساء يرتدين حجابًا سابغًا، وكثير من الرجال ملتحون. تروج شركة ستيلا للبيرة لجعة شعير «الملت» على لوحات إعلانية مضيئة موضوعة في ساحة انتظار السيارات. عندما يُرفع الأذان للصلاة تتوقف موسيقى المصعد ذات الطابع الجنوب أمريكي.

يقرأ المرء كثيرًا، أو يدعي ببساطة، أن الفقراء وغير المتعلمين يميلون إلى التوجه الديني، وأن الأصولية تعبير عن الظلم والقهر وهبوط المستوى الاجتماعي والجهل. غير أن إدراكي للوضع يخالف ذلك. تتكون حشود الغوغاء التي تشارك في أعمال العنف ضد الأقليات الدينية أو في أعمال

التصفية الجسدية أو الاعتراض على رسوم كاريكاتيرية في بلد بعيد مثل الدنمارك بكل تأكيد من أشخاص من الطبقات الاجتماعية الدنيا، إلا أن أيديولوجية تلك الاعتراضات تكون برجوازية. إلى جانب أن الإرهابيين — أي الأشخاص الذين لا يتصرفون بصورة تلقائية، وإنما يقررون بوعي استخدام العنف كوسيلة للجدل السياسي — يأتون في كل الأحوال تقريبًا من الطبقات الوسطى. الأشخاص الأكثر فقرًا يمدون بالشرعية ويمكن في بعض الأحيان تحريكهم بوصفهم القاعدة العريضة هنا وهناك، وذلك عادة باستخدام المال، وفي بعض الأحيان بالخمر، ودائمًا بحُجة أن الآخرين هم المتسببون في وضعهم المزري؛ ولكن عندما أسير في الأحياء التقليدية والأحياء البسيطة، أو أذهب إلى الريف سواء في مصر أو الهند أو إندونيسيا، فإنني لا أجد أن الكثير قد تغير، فهناك كان الناس دائمًا متدينين وفي كل مكان تجد نفس كرم الضيافة والمعاملة الطيبة للأجانب.

أما الحجاب — حتى نبقى في الحديث عن الدول الإسلامية — فلم يزدد انتشارًا في القرى، وإنما في البنايات السكنية العالية وفي ضواحي المدن وفي مجمعات التسوق وفي ماكدونالدز. وهذا ما ينطبق أيضًا على التصورات الأخلاقية: فسيدات الأعمال هن من ازددن تزمتًا لا الفلاحات، ولم تعد النقابات وحدها هي التي تطالب فجأة بمنع جميع الأوصاف الإباحية في الأدب وصولًا إلى «ألف ليلة وليلة»، بل أصبحت نقابة المحامين والجامعات تطالب أيضًا بذلك.

تنتشر المسيحية الإنجيلية في جميع ربوع القارة الأمريكية، وفي غضون بضع سنين سينضم أمريكيون جنوبيون للجماعات الكاريزمية أكثر من أتباع الكنيسة الكاثوليكية، وذلك لأن جاذبيتها لا تظهر في أقوى صورها على من يُسمَّون بالأشخاص البُسطاء وإنما على الموظفين والمدرسين وربات البيوت ورجال الأعمال. لذلك نرى ظاهرة مشابهة في الهند، حيث تتمسك بالدرجة الأولى الطبقات المتوسطة بثقافاتها الخاصة بصورة متزايدة، وهذه الطبقة تتكون من الأشخاص الذين تغيرت حياتهم تغيرًا كبيرًا بسبب العولمة.

هذا يعني أنه حالما تنتهي النماذج الثابتة للهوية كما يحدث بفعل العولمة، تنشأ نزعة إلى التشبث بشيء ما يُعد خاصًّا أو ادعاء صفة تميز

المرء عن الآخرين. يعود المرء إلى ما يتصور أنه كان عليه من قبل وإن كان لم يعشه في حياته قط. والحقيقة أن المرء لا «يعود» لأنه لم يشارك في تلك الثقافة قط، بل لأنه لم يشارك فيها الوالدان ولا حتى الجدان أيضًا. إن طريقة الحياة الخالصة والمنقولة والأصلية والواضحة والتي لا يوجد بها أي تناقضات — وهذا ما تدعيه جميع الأصوليات — لم تكن قط موجودة بهذه الصورة الخالصة، إنها فقط تصور مثالي.

لقد كتبت أن العودة إلى الجذور يمكن ملاحظتها بالدرجة الأولى في الطبقات المتوسطة التي تتعرض حياتها لأقوى تغييرات وتأثيرات غريبة في ظل العولمة، إلا أنه يمكن للمرء أن يزيد في ذلك فيقول: هناك توافق في معظم الدول بين هذا التدين السلطوي، وإن كان غير سياسي، والنظام الاقتصادي الليبرالي البحت، بل إن هذا التدين يبدو من الناحية الاقتصادية أنه يتواكب بصورة حتمية مع السوق الليبرالي. يمكن مشاهدة ذلك أوضح ما يكون في المملكة العربية السعودية، حيث يسود أكثر تأويلات الإسلام تزمتًا من ناحية ويسود من ناحية أخرى اعتقاد في الرأسمالية والاستهلاك والتقدم التكنولوجي، إذ لو قورن بالحزب الديمقراطي الحر في ألمانيا لبدا الأخير بجانبه وكأنه حزب من اللينينيين القدامى. تحديدًا بجوار الكعبة يُنشَأ الآن أكبر مجمع تسوق في الشرق الأوسط، وكل ماركات الاستهلاك العالمي ستكون ممثلة بفروعها فيه من بنيتون وصولًا إلى دايملار بنز. وللمبنى أبعاد ضخمة تجعل الحرم يبدو بجواره وكأنه ساحة لعب للأطفال. ولا يحمل واضعو التصميمات المعمارية همَّ الحفاظ على المدينة القديمة، إذ حُولت أجزاء منها إلى ساحات تابعة للحرم وهُدم ما تبقى منها منذ أمد بعيد. لا أحد يقطع ما بينه وبين ماضيه بصورة متطرفة مثل ما تفعل الجماعات التي ترغب في العودة إلى الماضي.

كثيرًا ما يُقال إن ما يُسمى بصراع الثقافات لا تدور رحاه ببساطة بين الإسلام والغرب، وإنما يسير مجراه في وسط الإسلام ذاته. هذا صحيح ويمكن الاستدلال عليه بكثير من الأمثلة. لم تقوَ شوكة القوى الأصولية في العالم الإسلامي وحدها، بل قويت أيضًا القوى المُضادة التي تُمثل نموذج المجتمع العلماني، أو حتى التي تسوق له ببراهين دينية. بالتأكيد لا ندرك وجودها

إلا نادرًا؛ نظرًا لأنها لا تمثل تهديدًا، ولا تلفت النظر إليها عن طريق حشد المظاهرات الضخمة أو القيام بأعمال العنف (إلى جانب أننا أيضًا لا ندرك وجودها عندما يتظاهر في باكستان مئات الآلاف مطالبين بالديمقراطية، وهذا عدد لم يصل إليه الإسلاماويون في باكستان في مؤتمراتهم الشعبية). نعم، الصراع الحقيقي حول الإسلام يدور داخل العالم الإسلامي نفسه. بطبيعة الحال تجري مناقشته في علاقته بالغرب، أي في ضوء السؤال عن الموقف الذي يجب على الإسلام أن يتخذه من الغرب، وخصوصًا فيما يتعلق بقيمه وإنجازاته، مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والعلمانية. الغرب هو الآخر الذي يرسم المرءُ الحدودَ التي تفصله عنه، أو الذي يتخذه المرء معيارًا ليتمكن من تحديد موقعه. أي أن الأمر يدور حول الإسلام في حد ذاته ويتعلق بمجتمعه.

أوروبا مُستثناة من هذا التطور؛ هذا ما يبدو. يدور النقاش بالتأكيد هنا وهناك عن عودة الدين والتهديد الذي يمثله ذلك لنظام المجتمع الليبرالي. لكن المرء يغفل أن الأديان في خارج أوروبا لم تختفِ قط من الحياة العامة. إن العولمة التي تتخطى حدود الفصل بين الدين والدولة، والتي تسببت فعليًّا في فقدان شامل لمعنى الأديان النظامية، أو بعبارة أشد ذلك الجمود الديني — تُعد ظاهرة تنفرد بها أوروبا. بهذا المفهوم الأوروبي لا تُعد الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا دولة علمانية. عندما نتحدث عن الغرب العلماني، فإننا نعني بذلك أوروبا الغربية. بينما في اليونان وفي البلقان بل حتى في بلد الجوار بولندا تقوم الأديان بدور سياسي جوهري وحاسم في الحياة العامة. يُفهم مُصطلح حرية الرأي في هذه الدول فهمًا أضيق بصورة واضحة، وتتعامل المحاكم مع جريمة القدح في الذات الإلهية تعاملًا أكثر صرامة وكثيرًا ما يُقاضَى الفنانون والأدباء الذين يسخرون من المسيحية. إن العودة العالمية إلى الأديان، التي يُعلن عنها في بلدنا هذا، ما هي في حقيقة الأمر إلا اكتشاف أن الأديان في خارج أوروبا لم تختفِ قط.

ولكن هل أوروبا الغربية مُستثناة حقًّا من انتشار خطاب الهوية؟ لا أظن ذلك. يتم لدينا أيضًا — وبصورة متزايدة — تعريف ما هو خاص، ويتم بذلك تثبيته؛ مما يؤدي في الوقت ذاته إلى تعريف الآخر، المُغاير. لا أعني

هنا حماسة البابا والمشاهير الكُثُر الذين يخرجون من ألمانيا في رحلات الحج أو الذين ينادون بعودة الأخلاق القديمة. مجتمعات غرب أوروبا أصبحت علمانية بدرجة من العُمق — بمعنى فقدان معنى الأديان النظامية — تجعل من المستحيل أن يكون للجانب المذهبي أثر سياسي، وفي بعض الأحيان يكون له على الأكثر صبغة فلكلورية. لذا نجد أن الحماسة الدينية لا تختلف في عرضها الإعلامي عن أي دفقات حماسية أخرى في ألمانيا. العنوان الرئيسي لجريدة «بيلد تسايتونج» عن يوم الشباب العالمي يعبر عن مُجمل الغرابة التي أصبحت عليها ثقافة الحدث الديني: «أكثر حفلات الرب شبقًا». يحق للمرء أن يفكر في القيم التي يمثلها البابا وفي القيم التي تمثلها صحافة «بيلد تسايتونج» غير الأخلاقية والجنسية والمعادية للأجانب. إنه نوع من الكتابة الحماسية التي لا يضاهيها شيطانية إلا التقارير الصحفية من عصور الديكتاتورية أو الحكم الديني مثلما في إيران. غير أن الأمر لا يتعلق بحال من الأحوال بالمحتوى الذي يمثله بنيديكت السادس عشر وبعض مواقفه الغريبة (التي ستبقى غريبة!)؛ مثل خطابه في أوشفيتس الذي اعتبر فيه المسيحيين ضحايا مع اليهود، أو خطابه في البرازيل الذي وعظ فيه الهنود الحمر قائلًا إنهم هم الذين دعوا إليهم المبشرين، فهو لا تثار حوله ضجة في صفحات الفنون والثقافة ولا في تلك المجلات، التي كانت تثير ضجة تستمر أسابيع حول كل ما كان البابا السابق يقوله حول الإجهاض. البابا الحالي يتكلم بصورة أكثر حسمًا وبطريقة مستفزة لنموذج مجتمع علماني يتبع مذهب اللذة ومنفتح على العالم. إلا أن واحدًا منًّا أصبح الآن بابا الفاتيكان، بل نحن أصبحنا الآن البابا. إنه يحقق لنا الهوية.

إن حماسة مثقف، لم يكن متدينًا من قبل، للكنيسة الكاثوليكية ليست لها أهمية الأصولية الإسلامية للشرق الأوسط أو القومية الهندوسية للهند أو الحركة الإنجيلية للولايات المتحدة الأمريكية. الكنائس لم تمتلئ أكثر مما كانت، وأظن أن البابا لن يعبأ كثيرًا بهذا الدعم الذي مرجعه إلى الإحساس بـ«نحن» أكثر منه إلى الصدق الديني. إذا أراد المرء في أوروبا الغربية أن يُحقق الشعور بـ«نحن»، فإن المسيحية لا تكفي كمرجعية للهوية. إن ما يناسب أكثر لرسم حدود فاصلة عن الثقافات الأخرى — وخصوصًا الإسلام — هو

التنوير والعلمانية. يمكن عند ذلك إدخال المسيحية بوصفها عاملًا ثقافيًّا تاريخيًّا، أي باعتبار التاريخ الأوروبي تاريخ الغرب المسيحي. إن «اختبار المسلمين» الذي أُجري في ولاية بادينفورتيمبرج يوضح التطورات الغريبة التي يمكن أن يؤدي إليها هذا الفهم المسيحي للتنوير، إذ رأى الديمقراطيون المسيحيون تحديدًا أن المثلية الجنسية هي الصفة المميزة للثقافة الأوروبية. بالتأكيد لم يكن هدف الحزب المسيحي الديمقراطي التقرب من المثليين، وإنما اتخاذ حدٍّ فاصلٍ عن الإسلام، ولكن على أي حال: إذا كان المسيحيون الديمقراطيون في حاجة إلى المسلمين حتى يعترفوا بالثورة الجنسية، فإن هذا يعني أننا يمكن أن نكون نافعين في شيء ما!

لقد أصبح الآخر الذي يحتاجه المرء في أوروبا الغربية دائمًا حتى يُحدد معالم نفسه يتمثل ليس فقط — ولكن بالدرجة الأولى — في الإسلام. ليس من باب المصادفة أن يكون الجدل الدائر عن التعددية الثقافية جدلًا عن الإسلام، علمًا بأنه ليس جدلًا «مع» المسلمين وإنما «عن» المسلمين بالدرجة الأولى. كان السؤال التقليدي الذي أدار به موقع بيرلينتاوخر الإلكتروني عجلة النقاش العابر لحدود الدول: «من الذي يجب على الغرب دعمه: المسلمون المعتدلون مثل طارق رمضان أم المعارضون الإسلاميون مثل أيان حرزي علي؟» يبدو أن السؤال قد استبعد حقيقة أن طارق رمضان وأيان حرزي علي ينتميان إلى الغرب، وأغفل السؤال أيضًا إمكانية أن يكون شخص ولد مسلمًا ليس إسلامويًّا ولا معارضًا للإسلام. في الحقيقة فإن الأشخاص الذين يظهرون في مثل هذا الجدل أو ما يشبهه من النقاشات التي تحمل أسماءً عربية أو إيرانية أو تركية يكونون دائمًا كُتابًا يرفضون الإسلام، دورهم مثل دور شهود الإثبات للادعاء. يقدم الدفاع هنا وهناك أيضًا شهود نفي في صورة مثقفين مسلمين يؤكدون عدم وجود تعارض بين دينهم والتنوير. إلا أن الشهود يُستبعدون من الحكم. ليس هذا فحسب، بل يكاد لا يوجد عالم واحد في الدراسات الإسلامية يشارك في الجدال. جميع الكفاءات الأخرى نجدها ممثلة في النقاشات — وفي كلا المعسكرين، معارضي الإسلام وفاهمي الإسلام — سواء الصحفيين أو المؤرخين أو الكتاب أو علماء الاجتماع أو علماء السياسة، ولكن في كل الجدل الدائر في الآونة الأخيرة لم أجد في

الحلقات النقاشية في التلفاز ولا في الكتب التي تُجمع فيها المقالات ولا على الصفحات الثقافية في الجرائد أستاذًا واحدًا من أساتذة العلوم الإسلامية الذين يدرّسون في إحدى الجامعات الألمانية، على الرغم من وجود عدد من علماء الدراسات الإسلامية المتميزين في الجامعات الألمانية. إن الاستغناء عن الكفاءات العلمية له منطق واحد: الجدل في غرب أوروبا عن الإسلام ما هو إلا جدل عن أوروبا الغربية نفسها.

وهذا أمر غير مستنكر، فعن طريق الإسلام الذي يقوم بدور الانتماء البديل يمكن بصورة أوضح مناقشة كيف يُنظَر إلى الثقافة الخاصة بأوروبا الغربية، وماذا يعني المرء بمفاهيم مثل الليبرالية والعلمانية والتعددية. كثيرًا ما رأيت كيف تحولت نقاشات حول أوروبا وقيمها في ساحات عامة إلى نقاشات حادة وعاطفية عندما كان يُذكر عنوان مثل انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي أو الحجاب. على الفور تصبح الأسئلة أكثر تحديدًا: هل من الليبرالية أن نسمح للمعلمات المسلمات بارتداء الحجاب؟ هل تعني العلمانية أن تعامل الدولة جميع الأديان بمساواة تامة؟ هل تعني التعددية أن تصبح المئذنة جزءًا من شكل المدينة؟ هل يمكن لدولة إسلامية أن تنضم إلى الاتحاد الأوروبي؟ إن التصور الذي تقوم عليه أوروبا التي ينتمي إليها الإسلام ولو بصورة ضمنية على الأقل يختلف عن تصور تقوم عليه أوروبا التي تُعرِّف نفسها من خلال جذورها المسيحية اليهودية، وتضع حدودًا فاصلة لها عن الإسلام. تحولت القضايا الخلافية للمؤرخين إلى قضايا العصر الخلافية: هل الفلسفة العربية للمسلمين واليهود جزء من تقاليد التنوير الأوروبية؟ هل تقوم أوروبا أيضًا على فكر رواد إسلاميين للحداثة في الفلسفة وفي علم الكلام أو في الأدب؟ هل تدخل إسبانيا الإسلامية أو الدولة العثمانية في التاريخ الأوروبي؟ أم أن عرضها يجب نقله إلى علوم الشرق الأوسط؟ أيًّا ما كانت الإجابة فإن لها، بالنظر إلى تركيبة مجتمعنا، تأثيرات على مستقبلنا.

التعبئة الذهنية التي تتم في أجزاء من المجتمع لا تُخطئها العين. اتخذت التقارير الصحفية عن الإسلام في فرادى وسائل الإعلام منذ فترة طويلة صورة الحملة، وقد حللها العلماء كثيرًا أيضًا فيما يتعلق بلغة الصور المستخدمة فيها: رجال ملثمون ومدججون بأسلحة آلية، وحشود

من النساء المنتقبات، وصور من الخلف لفتيات محجبات في أفنية المدارس الألمانية، ووجوه متشنجة وهي تصرخ، ومُصلون في اللحظة التي ينزلون فيها إلى السجود بحيث تُحدِّق مؤخراتهم مبتسمةً في عدسة الكاميرا. ولإثبات العنف الفطري في الإسلام تقدم المقالات والبرامج والكتب التقليدية دائمًا نفس الاقتباسات من الآيات القرآنية عن العنف، وكأنه لا يوجد سياق تاريخي أو نصّي تجب مراعاته، بالإضافة إلى أنهم ينتقون من التاريخ المذابح والاضطهاد وحروب الاستعمار التي حدثت بالفعل وبالتأكيد في التاريخ الإسلامي، وبذلك يبدو تاريخ الإسلام وكأنه بيت الأشباح. يتضح كم هو رخيص مثل هذا النموذج إذا قلبناه إلى عكسه: الاستعمار والحروب الصليبية، والإبادة الجماعية للهنود الحمر، ومحاكم التفتيش، وأمر المسيح بالتبشير، والشيشان، والعراق، وصبرا وشاتيلا، وفلسطين، وسريبرينيتشا، والدعاية المسيحية للصرب، والفصل العنصري في جنوب أفريقيا الذي كانت له شرعية حاسمة من الإنجيل، والمحرقة، وحربان عالميتان، وعلى سبيل التغيير حاليًّا أيضًا ساحل العاج أو معارضة المساجد في أوروبا، كل هذا إذا أضفنا إليه بعض الاقتباسات عن الحرب المقدسة من الإنجيل وبعض أقوال بوش وبيرلسكوني، ثم قدمناها إلى مجموعة من كارهي أمريكا حتى يحللوها، فسيصبح لدينا على الفور ما يكفي لإقناع السُذَّج في العالم الإسلامي بالعنف الفطري في المسيحية. تعمل مختلف المواقع الإلكترونية تبعًا لنفس هذا النموذج عندما تسرد يومًا بعد يوم أين ارتكب المسلمون مجددًا أعمال عنف أو أعمالًا جديدة يبرهنون بها على غبائهم، أو وضعوا أنفسهم موضع السخرية. ومن السهل أيضًا ما تقوم به بعض المواقع الإسلامية يومًا بعد يوم من عرض أخبار سلبية عن أشخاص أو مجموعات أو دول في مكان ما من العالم تقوم بأعمال تتطابق مع صورة العدو التي يرسمها المرء لهم، بداية من اتحادات شركات البترول العملاقة في الشرق الأوسط، مرورًا بالاستغلال الجنسي للأطفال، وصولًا إلى الاعتداء بالعبوات الحارقة على مخيمات اللاجئين أو المساجد. يمكن أن يكون كل خبر صحيحًا في حد ذاته، إلا أن تجميعها بهذه الطريقة يصنع كذبة.

وفي معظم الأحيان تصف أكثر الكتب مبيعًا في أوروبا عن الإسلام مشاكل اجتماعية مُلحة في داخل العائلات المسلمة، دون استخدام إحصاءات

ميدانية توضح علاقتها بالعدد الحقيقي للمسلمين، وبذلك تنقل انطباعًا للقارئ بأن وجود جرائم الشرف والزواج القسري والعنف هو القاعدة في العائلات المسلمة، وأن المسلمين المتحضرين والعلمانيين هم الاستثناء. هذا أمر غريب، كما لو كانت دراسة عن المتطرفين اليمينيين في شرق ألمانيا ستعطي انطباعًا بأن جميع الألمان الشرقيين متطرفون يمينيون، أو كأن طبيب عيون سيصل إلى نتيجة مؤداها أن لدى جميع الناس مشاكل في عيونهم. هذا يشبه في ضحالته الفكرية الاقتصار دائمًا على حصر الحالات التي يتعرض فيها مسلمون في العالم — وخصوصًا في ألمانيا — إلى اضطهاد. بالتأكيد توجد مثل هذه الحالات: عائلات لا تتمكن من الحصول على شقة سكنية بسبب اسمها العربي، أو نساء يتعرضن لأن يبصق عليهن أحدهم في الطريق لأنهن يرتدين الحجاب. وإذا أمعنا النظر، فسنجد كل يوم بعض الحالات المثيلة. ولكن الأمر يصبح هزليًّا إذا اتخذنا هذه الحالات دليلًا لإثبات وجود اضطهاد ضد المسلمين، بل وعقد مقارنات مع اضطهاد اليهود إبّان العصر النازي كما يحدث أحيانًا. لا تكاد توجد دولة في العالم تتمتع فيها الأقليات الثقافية والدينية بنفس الحقوق بصورة كاملة. إلا أنه بالمقارنة بالدول الأخرى، وخصوصًا الإسلامية منها، فإن الأقليات تتمتع في أوروبا بدرجة عالية من الحرية والتحرر، وهذا ينطبق على المسلمين أيضًا. ولا يعني هذا تقبل الاضطهاد، ولكن على المسلم أيضًا ألا تغيب عن عينيه النِسَب تمامًا، ويجب عليه أن يعترف بمميزات مجتمعاتنا الغرب أوروبية. نعم، هناك صورة الإسلام العدو، ولكن ما يجب أن يؤرق المسلمين أكثر من ذلك هو وجود إسلام يتصرف وكأنه عدو.

كي نعبر عن ذلك بوضوح أكثر: لقد ألقت الكتابات الناقدة للإسلام التي تحظى بانتشار شعبي — حتى وهي تبالغ أو تعرض صورًا أُحادية — في السنوات الأخيرة الضوء على أوضاع سيئة كان العلم والسياسة يتجاهلانها فيما سبق، وهذا سيبقى المكسب من ورائها. ولكنها في الوقت ذاته — أحيانًا من دون قصد، وكثيرًا مع سبق الإصرار والترصد — كانت تقدم القرائن لمطالب سياسية من شأنها تدمير نظام مجتمعنا الليبرالي. إن التعاطف والترابط المؤسسي اللذين يتمتع بهما أشهر ناقدي الإسلام دوليًّا — مثل أيان

حرزي علي أو ليون دي فينتر — مع المحافظين الجدد في شمال أمريكا لهما دلالتهما مثلهما مثل التصفيق الذي يحظى به كتَّاب في ألمانيا مثل هنريك إم برودر أو رالف جيوردانو من معجبيهم من دوائر الإنجيليين ومُعادي الأجانب وحتى النازيين الجُدد. وكونهم يقاومون بطريقة مقنعة محاولات الأصوليين اليمينيين لضمهم إليهم لا يغير شيئًا في أن آراءهم وادعاءاتهم ونماذج اتهاماتهم لا تختلف حتى في اختيار المفردات المستخدمة عن بعضها شيئًا.

أما من يحاول أن يُسمع الآذان ويلفت الانتباه مستخدمًا الحُجج وحتى المعارف العلمية فإنه سرعان ما سيوضع عليه علامة «المدافع الساذج عن التعددية الثقافية». إذا صدّق المرء دُعاة صراع الثقافات، فإن العلوم الإسلامية الألمانية تكون قد وقعت جميعها في شرك الإسلاماوية. وقد لاقت الدراسات الألمانية حول الهجرة نفس المصير، بعدما وجهت في خطاب مفتوح نُشر في جريدة «تسايت» نقدًا ضد الجدل الذي يدعي العلمية والذي يدور بين مؤلفي الكتب الأكثر مبيعًا مثل التركية نكلا كيليك، ممن لا يعبئون بالإحصاءات الميدانية المؤكَّدة. إذا انطلقنا مما ورد على بعض الصفحات الثقافية من ردود فعل غاضبة، فإن المرء ربما يعتقد أن الجامعات الألمانية تجري غسيل مخ إسلامي فاشيًّا للطلاب.

من الملاحظ أيضًا أنه حتى قيادة الكنيسة الإنجيلية التي كانت في السابق ليبرالية قد اكتشفت في الجدل حول الإسلام حقلًا مناسبًا لإبراز الذات. لقد سعت الكنائس في ألمانيا — الكنيستان الكبيرتان على وجه التحديد — إلى إدماج المسلمين بفعالية أكثر من مؤسسات المجتمع الأخرى. لقد شجعت الكنيستان الحوار وساندتا مصالح المسلمين الدينية؛ وخصوصًا في أماكن حياتهم في المدن والمحليات بصورة أكبر مما يستطيعه المسلمون، لأنهم بالنظر إلى هياكلهم الاجتماعية كانوا لا يملكون الممثلين المفوهين. حتى اليوم لا تُبنى مساجد إلا إذا دعمت ذلك الطوائف المسيحية التي تعيش في المكان، أو شاركت في التصميم، أو قامت بدور المؤيد للمشروع لدى إدارة المدينة أو على الملأ. كان هذا أكثر مما يمكن لأبناء أقلية من الأقليات أن يتوقعوه من مؤسسات تابعة لدين آخر. كان هذا إنجازًا اجتماعيًّا رائعًا في

العقود الماضية، سبقت به الكنيسة الدولة بكثير. وأثَّرت تلك السماحة في حالات كثيرة على الإسلام في ألمانيا، على سبيل المثال يوم المسجد المفتوح، والصلات الكثيرة مع الأشخاص في أماكن حياتهم، وتقليد دعوة مسيحيين إلى الإفطار في رمضان، وكثير غير ذلك. فكرة عقد حوار بين الأديان في حد ذاتها لم تكن بديهية في رأي جماعات المسلمين التي كانت تبعًا لهيكلها الاجتماعي والثقافي جماعات منغلقة إلى حد ما، ذات ثقافة ريفية تركية.

على العكس من الكنيسة الكاثوليكية التي — على الرغم من خطاب بنيديكت السادس عشر في ريجنسبورج — تجري الحوار بين المسيحية والإسلام بحماسة كبيرة، وتتخذ إجمالًا موقفًا متسامحًا ومتفاهمًا من الإسلام في ألمانيا؛ فإن قيادة الكنيسة الإنجيلية في ألمانيا تبتعد عن الإسلام بصورة متزايدة. المنشور الذي نشرته مؤخرًا عن الحوار كان بأقلام كتاب إنجيليين وتظهر فيه لهجة العداء التي لم تكن لتخطر ببال أحد قبل أعوام. في احتفالية يوم الكنيسة التي عُقدت مؤخرًا قابل الجمهور ممثلي الإسلام بالصفير فور اعتلائهم خشبة المسرح. أما رئيس مجلس الطائفة الإنجيلية في ألمانيا الأسقف فولفجانج هوبر، الذي كان يجلس على منصة المتحدثين، فلم يُذكِّر الجمهور بوصية الضيافة، وإنما تسبب بملاحظاته في ازدياد حدة عبارات الاستياء الموجهة ضد المسلمين. وفي المؤتمر الكَنَسي الأخير اقتصر تعريف العقيدة الإنجيلية اليوم إلى حدٍّ بعيد على الفروق التي بينها وبين الإسلام.

يتحمل المسلمون بطبيعة الحال جزءًا من مسئولية تزايد النظرة المتشككة لهم في الغرب. لا أعني بذلك العنف السياسي الذي يرتكبه بعض المسلمين، والأوضاع غير الديمقراطية في معظم دول العالم الإسلامي، ولكن أيضًا الطريقة التي يتصرف بها المسلمون على الملأ. إن أشهر وأوضح مثال لذلك من الفترة القريبة الماضية يوضح ويؤكد في الوقت ذاته صورة الإسلام العدو — هو النزاع حول الصور الكاريكاتيرية الدنماركية المسيئة للرسول محمد. تطورت أحداث الصراع وكأنما كتب مؤلف أفلام سيناريو لصراع ثقافات عالمي. ورد فعل المسلمين في هذا السيناريو يشبه رد فعل الكلاب البافلوفية المعروف بالارتباط الشرطي؛ أي بصورة متوقعة ودون

تفكير وبعنف. وكأنهم ينبحون إذا رأوا الإشارة الضوئية ويعضون إذا أُمروا بذلك. لم يدرك قطاع كبير من الرأي العام، وخصوصًا الإيراني والعربي، أن المرء يجب ألا يلجأ إلى العنف فقط لأنه غاضب أو يشعر بالإهانة، وأنه توجد الآن في العالم وفي ظل العولمة طرق سلمية وذات تأثير أكبر بكثير للتعبير عن الموقف. لدى كل مستهلك إمكانية مقاطعة السلع؛ هذه هي لعبة اقتصاد السوق الحرة. لذا نجد أن شركات الإعلام الأمريكية الكبيرة تحديدًا لا تجرؤ على إثارة حفيظة جماعات المشترين المهمة وذلك بالنظر إلى العواقب الاقتصادية الممكنة. لو تصرف المسلمون بهذه الطريقة لكسبوا الصراع لمصلحتهم، وأظهروا فضلًا على ذلك للعالم كله أن رئيس الوزراء الدنماركي عديم المبادئ؛ إذ إنه كان مستعدًا للتخلي عن احتقاره للمسلمين وأن يلوح راجيًا «أرجوكم، أرجوكم الحوار» مع أول علبة جبن «فيتا» امتنع المسلمون عن شرائها عملًا بمبدأ المقاطعة. كان بإمكان المسلمين أن يفعلوا ذلك حتى إن أغضبت المقاطعة أوروبا، وكان بإمكانهم أن يثقوا في أن قطاعات عريضة من الرأي العام العالمي ستتعاطف معهم؛ بما في ذلك كثير من المراسلين الصحفيين من الولايات المتحدة الأمريكية حيث تقدم وسائل الإعلام الجادة تقارير أكثر دقة عن الإسلام. ولكن اتضح مجددًا أن كثيرًا من المسلمين لم يفهموا قواعد اللعبة في العالم الحديث على الرغم من أنهم يعيشون فيه. يمكن للمرء أن يقاطع السلع ويكتب المقالات وينفق الأموال على الحملات الإعلامية ويقوم بعمل جماعي في صورة تكوين «لوبي»؛ ولكن لا أحد يملك الحق في أن يقتحم السفارات وأن يهدد بالقتل. هناك الكثير مما يمكن شرحه في سلوك القائمين بأعمال الشغب (مثلًا استخدامهم من قبل أنظمة ديكتاتورية)، لكن لا مبرر لأفعالهم. لقد أساءوا إلى ميراث الرسول وإلى صورة الإسلام أكثر مما فعلت الرسوم الكاريكاتيرية نفسها. ويوضح ميلها لاستخدام العنف مدى بعد الجماهير العربية عن معايير التمدن والعدالة والاتزان التي تتوقع من الغرب أن يتحلى بها.

على الجانب الآخر من صراع الثقافات كانت هناك جريدة دنماركية تقف على الهامش السياسي اليميني في بلد اتجه في الأعوام الماضية بلا شك إلى اليمين حتى أصبح لديه الآن أكثر قوانين الأجانب تشددًا في جميع دول

الاتحاد الأوروبي، كما أعلن رئيس وزرائه مفاخرًا. لم تفلح هذه الجريدة طيلة أربعة أشهر في أن تستفز الجالية المسلمة في الدنمارك استفزازًا حقيقيًّا. على مدار أربعة أشهر أرسلت تلك الرسوم السخيفة مرارًا وتكرارًا حتى وجدت في آخر المطاف الأشخاص المتحمسين الذين تصرفوا بالطريقة التي كانت تريدها الجريدة. الاستفزاز لا يبرر ولا يقلل من حدة رد فعل بعض الأئمة في الدنمارك وفي قطاعات من الرأي العام الإيراني والعربي. عندما يحرك الآخر وشاحًا أحمر أمامي، فهذا لا يعني أنه يجب عليّ أن أتصرف كالثور الهائج. لكن للأسف يتصرف حاليًّا كثير من العرب والمسلمين مثل الثيران قليلة الذكاء والإدراك عندما يفقدون صوابهم بسبب بعض الرسوم الكاريكاتيرية السيئة.

أي شخص لديه بعض الدراية بالأدب الشرقي يعرف أن فيه كثيرين من الحمقى الذين يسيئون لكل شيء، فعلًا لكل شيء، بما في ذلك الإله والملالي والحكام (بينما يُستثنى الأنبياء — جميع الأنبياء — إلى حدٍّ بعيد)، ولم يكن يوجد بكل تأكيد التزام كامل بتحريم تصوير النبي محمد، ويمكن عمومًا رصد وجود انتهاك دائم للأمور المحرمة أو التابوهات في الحضارة الإسلامية، وتحديدًا في فترات ازدهارها في العصور الوسطى. فأنت تستمع إلى أكثر النكات حدة عن الإسلام في طهران وبيروت أو في إسطنبول، وكثيرًا ما تسمعها من أفواه الملالي وهم يبتسمون ابتسامة ماكرة. أما ما لا يمكن أن تسمعه إلا في أوساط العنصريين في إيران فهو النكات التي تدور حول الأقليات اليهودية والمسيحية، ولن تجد شخصًا يضحك عليها من أولئك الذين يهتمون بالتعايش السلمي للأديان. كما تبرهن دعوة إحدى الصحف الإيرانية القراء أن يرسلوا رسومًا كاريكاتيرية معادية للسامية على أن الرئيس الحالي لإيران والصحافة التي يسيطر عليها لا يهتمون بمثل هذا التعايش السلمي. فهل يجب علينا أن نتخذه مثلًا يُحتذى؟ لا يوجد جميل يمكن للأوروبيين أن يسدوه للإسلاماويين أكبر من أن يضربوا بمعاييرهم ومثلهم العليا عرض الحائط. يرفع كثير من المثقفين والصحفيين والسياسيين في أوروبا منذ فترة وللأسف شعار: من اليوم سنرد الضربة بالضربة. إن من يكافح أعداء المجتمع المنفتح عن طريق تخليه عن انفتاحه الثقافي يخسر المعركة بالفعل.

لم تكن الرسوم المسيئة للنبي محمد تكرارًا لحالة سلمان رشدي. فقد كان حق رشدي — الذي لا يقبل الفصال والذي يجب الدفاع عنه دائمًا — أن يعبر عن فهمه للثقافة الإسلامية كما يراها، بل والأكثر من ذلك: إن التعامل بغير اكتراث مع القيم الذاتية والمرجعيات السلطوية ينتمي إلى عمل الآداب والفنون، حتى إن تسبب ذلك في ازدياد أعداد أعدائها. يُعد رشدي واحدًا في إطار تقليد قديم من الأدبيات في العالم الإسلامي التي تعرضت للإسلام نفسه. كثير منهم دفع ثمن ذلك بالمنع أو بالحبس أو بحياته ذاتها.

كان غرض هيئة التحرير الدنماركية مختلفًا تمامًا، فقد حاولت على مدار أربعة أشهر استفزاز أقلية في بلدها حتى تقوم برد فعل يمكن استخدامه لتبرير تهميش نفس هذه الأقلية بصورة أكبر. لم يتعلق الأمر لا بالحق في النقد ولا بالسخرية بوصفها رأس الحربة في حرية التعبير عن الرأي. هنا تم ويتم الضحك على ثقافة أخرى. وهذا له في أوروبا تقليد مختلف تمامًا، وهو التقليد الذي يقف أبعد ما يكون عن المذهب الإنساني؛ وهذا ينطبق على الاتجاه السياسي للجريدة الدنماركية وللسياسيين الذين يقفون وراءها. إن حربهم لا تتجه فقط ضد المسلمين ولكن ضد كل ما جعل أوروبا بعد كل هذه الجرائم والحروب تصبح مكانًا رائعًا، ضد التسامح والعقل وثقافة الحل الوسط والتوازن والعلمانية الحقيقية التي تعتمد على المساواة وأيضًا احترام الأديان. إن نشر رسوم كاريكاتيرية تسيء إلى أقلية مظلومة على أي حال وتعيش في ظل قوانين عنصرية هو أمر ينافي التنوير. إنها معاداة بغيضة للأجانب وستبقى.

سيخدم الصراع حول الرسوم المسيئة في المستقبل علماء الإعلام، بوصفه مثالًا على قدرة وسائل الإعلام الغربية وغير الغربية في أيام قلائل، وبتعاون محكم فيما بينها، على التسبب في حالة من الهستريا تنتاب جموع البشر، الذين تقدم تلك الوسائل تقاريرها عنهم. وكل من يدلي بدلوه في الحديث يتحول إلى جزء من السيناريو الذي يجب أن يتحدث فيه الجميع: ناقد الإسلام وكذلك من يمثل الإسلام ويحاول أن يهدئ من غضب الجماهير، والناقد الإعلامي وكذلك الصحفي الذي يشكو من النقد الإعلامي. هذا التتابع من استفزاز ثم تهديد ثم تهدئة ثم غضب من محاولات التهدئة يتكرر مع

كل ثورة مشاعر تحدث كل بضعة أشهر بسبب موضوع الإسلام، كما حدث مؤخرًا بعد رفض دار نشر أمريكية نشر رواية عن النبي محمد، مما منح هذا الكتيب الضعيف من الناحية الأدبية الذي لا يعتبر بحال من الأحوال معاديًا للإسلام نجاحًا عالميًّا لم يكن يحلم به. لأن «الفضيحة توجد حيث تضع لها وسائل الإعلام نهاية» إذا استعرنا مقولة كارل كراوس. لقد أصبح النموذج مألوفًا حتى إنه لم يعد بحاجة إلى الاستفزاز أو إلى التهديد حتى تنطلق نفس الحجج والبراهين: لذلك لم يُسمح للفنان جريجور شنايدر بعرض مكعبه الأسود الذي يُذكِّر بالكعبة لا في مدينة البندقية ولا في برلين على الرغم من أن الاتحادات الإسلامية هناك أكدت أن هذا لا يُعد إهانة لهم على الإطلاق، وأُلغيت أوبرا «إيدومينيو» لموتسارت التي كان مقررًا عرضها في برلين بسبب القلق من ردود الفعل الإسلامية الغاضبة، دون أن يكون هناك مَن غضِب.

من الذي يشارك في جدل مثل الذي دار حول الرسوم الكاريكاتيرية الدنماركية أو إلغاء عرض أوبرا في برلين؟ إن الذي لم يتصفح باب الثقافة في الجرائد قط لديه هموم أخرى. تُعد حرب الثقافات في الدول الإسلامية أو في الهند وأيضًا في ألمانيا همًّا برجوازيًّا. توجد بالتأكيد القاعدة العريضة من الشعب، التي تخرج في مظاهرات ضد المساجد أو تعبر عن غضبها على الإنترنت، ولكن الاتجاه يعطيه دائمًا الصحفيون والأساتذة والسياسيون، الذين يشاهدون كيف يتغلغل الصراع بين الغرب والإسلام ليصل حتى إلى أنفاق المترو تحت الأرض؛ بينما يعيشون هم عادة في أحياء سكنية قد لا يتمكن مهاجر من السكن فيها أبدًا. إن شعور الحياة هنا أيضًا ليس موجهًا ضد شيء بعينه بالدرجة الأولى. هناك تسامح مع المسلم. فقط المتطرفون اليمينيون هم الذين يعادون الأجانب، وبالطبع فإن المرء ينأى بنفسه عنهم. إلى جانب أنه ليس للمرء أي علاقة بالعنف ضد الأجانب، والأكثر من ذلك: المعتدون يسيئون لثقافتهم بأنفسهم. إن المرء ليس ضد الآخرين، وإنما فقط «مع» الحفاظ على ثقافته، لأن هذه الثقافة الخاصة مهددة دائمًا وفي كل مكان. عندما يسافر المرء كثيرًا، فإنه يأخذ انطباعًا بأن الجميع مهددون وحسب.

لا أحد يرى نفسه عدوانيًّا، ولا توجد ضغائن دون خوف يعتبر ذريعة لها. حتى أسامة بن لادن قد لا يرى نفسه عدوانيًّا. دائمًا وفي كل مكان يدور خطاب الهوية مع الإشارة إلى الحفاظ والدفاع. ليس لدى المرء قط أي شيء ضد الآخرين ولكن للأسف الآخرون هم الذين يحملون مشاعر الكره، حتى لو لم تكن أسباب ذلك مفهومة، وكانت في حقيقة الأمر ادعاءات مريضة فقط. يعد المرء نفسه دائمًا مسالمًا جدًّا. «لماذا يكرهوننا؟»: عنوان نقرؤه على أغلفة المجلات في هامبورج والقاهرة ودلهي وواشنطن. لكنك لو لفت نظر عالم دين مسلم عادي أو رجل أعمال عربي أو صحفي إندونيسي إلى أنه يكره الغرب، فسوف يظنك قد أصبت بلوثة. ربما يعترف بوجود قلة من المتطرفين لا علاقة له بهم يكرهون الغرب، لكنه هو نفسه ربما يرفض في الغرب هذا الأمر أو ذاك؛ ربما يخاف من التفوق العسكري للولايات المتحدة الأمريكية، ولكن الكراهية سيرفض تمامًا وبكل تأكيد نسبها إليه.

هل سيكون الوضع مختلفًا في الغرب؟ لا يوجد مسيحي عاقل ولا مثقف وربما ولا حتى متطرف يميني سيدعي على نفسه كراهية الإسلام. الكراهية في داخل المعسكر الذي ينتمي إليه المرء تُعد أساسًا ظاهرة الأقلية المتطرفة، وفي معسكر الآخرين ظاهرة الحشود. لو كانت الثقافات والمجتمعات مسالمة هكذا كما تظن بنفسها لما وجدت بالتأكيد حروب. ولكن بصرف النظر عن حملة الاستعمار هذه أو تلك في العصور القديمة — ربما يمكن هنا ذكر المغول — فإن المرء يبدأ الحروب أساسًا لكي يدافع عن نفسه. حتى الحملات الصليبية كانت تبعًا لأيديولوجيتها الخاصة حروبًا دفاعية أو بالأحرى حروبًا لاسترداد ما قد سُلِب، وكان انتشار الإسلام تبعًا لوجهة النظر الإسلامية عملًا دفاعيًّا حاسمًا تبرره دائمًا الأعمال العدائية التي يقوم بها الآخرون غير المسلمين. لا، بل ربما شعر المغول هم أيضًا بأنهم مهددون.

إن الدين الجديد للبرجوازية الصغيرة التي تمثل الطبقة المتوسطة في العالم، والتي تشبه معابدها «هايبر وان»، متنوع بما يكفي لتزويد عمود الإعلانات الذي يُضاء من الداخل بما يحتاجه من وحي مناسب، وأمام العمود يوجد رفان يمتلئان بما يشرح القلب من ثقافة البلد، مما يهدف إلى خلاص الأفراد الذين يخاطبهم بصيغة «أنت». والسياسة هي الشيطان

الذي يعبث بالعلاقات الاجتماعية. في مصر لا يزال عمرو خالد النجم بين الدعاة، وهو ابن الواحد والأربعين عامًا، وخريج كلية التجارة، وعادةً ما يرتدي قميصًا أبيض وربطة عنق دون جاكت، وله شارب مهذب. وهو دائمًا مبتسم في الصور التي تغطي جميع كتبه وكأنها شعار. أضع في عربة التسوق أقل كتبه سعرًا، ثلاثة جنيهات وخمس وسبعون قرشًا، أي ما يقارب الخمسين سنتًا، وهو كتاب عن التفكير بوصفه عبادة، يشرح الكتاب لي، أي للقارئ، في خمس وسبعين صفحة قصة الخلق منذ بدايتها. تُعد قضية النشوء والتطور أبسط فيما يخص الدين الإسلامي لأن القرآن تجنب الخوض في التفاصيل عندما قال في السورة رقم ٩٦ (العلق) ﴿خلق الإنسان من علق﴾ مما يفتح الباب حتى أمام نظرية الانفجار الأول.

معظم الكتب الأخرى لعمرو خالد تهدف إلى تنمية الشخصية سواء «شخصية المؤمن» أو «الصبر والذوق». وبينما تعرض طاولات الكتب الأخرى في مصر كل جندي أمريكي على أنه محارب صليبي، وكل مهاجر غير شرعي يغرق أمام سواحل جبل طارق على أنه شهيد إسلامي، نجد أن صراع الثقافات سلعة غير متوفرة في «هايبر وان»؛ لا شيء عن شر الغرب، ولا توجد قصص حوارية على غرار «هروبي من براثن مغتصب الأطفال» أو «ثماني مرات اغتصاب في برلين» أو «مضطهدة: قصة معاناة مسلمة أوروبية». بل على العكس من ذلك نجد إبرازًا لسماحة الإسلام: «حقيقة غزوات النبي». وأمام الرف الديني توجد الكتب الدولية التي تقدم النصح والإرشاد: «الطريق إلى السعادة» أو «كيف تتغلب على منافسيك» أو «الاحتراف في المكتب»، والرف الذي وراءه تشغله مستلزمات الكمبيوتر، طابعة سامسونج ليزر بحوالي ٦٠ يورو، وعلى عمود الإعلانات بجوار المصاحف كتب الطبخ والتدبير المنزلي مثل «ستائر هيثر لوك» وهي أيضًا مثل الكتب السابقة مترجمة من الإنجليزية. في حين لا تجد في رف الأدب إلا كتبًا باللغة الإنجليزية للمؤلفين كين فوليت وجون جريشام ودونا ليون. وإذا بحثت عن كاتب مثل نجيب محفوظ، فإن بحثك سيضيع سُدى. في مقابل ذلك تعود «ألف ليلة وليلة» في نسخة والت ديزني إلى العالم العربي.

بينما كانت القرى السياحية التي كان يرتادها السائحون الغربيون قديمًا متشابهة، أصبحت اليوم أيضًا أماكن حياة المواطنين متشابهة. في

«هايبر وان» أشتري نظرة في المستقبل. بصرف النظر عن بعض المنتجات المحلية مثل البلح، فإن المواد الغذائية ليست فقط هي نفسها، بل إن الماركات بدرجة كبيرة هي نفسها. بار القهوة ومحل الأحذية الإيطالي «فيارجيو» ومتاجر الهواتف النقالة ومحال البيتزا والآيس كريم، ومطاعم الوجبات السريعة الخمسة واستديو الأثاث وفيه أرائك ماركة «لين روزيه» وقبعات البيسبول والقمصان الصفراء التي يرتديها العاملون، والخزائن الميكنة (العمالة رخيصة كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، لذا يوجد من يساعد في تعبئة المشتريات في الأكياس)، والبنوك تتجنب أيضًا أي علامات محلية، ولكن أثناء أزمة الرسوم الكاريكاتيرية وضعوا في الثلاجات مصاحف مكان الجبن «الفيتا». آهٍ لو تعلم أمريكا كم هي ناجحة وكم هي محبوبة، ربما قلَّ عدد الحروب التي تشعل فتيلها.

في مكان العروض الخاصة عند المدخل تباع أشجار عيد الميلاد البلاستيكية المزينة بالقطن الأبيض، فضلًا على زينة عيد الميلاد وسلاسل الزينة المضيئة. الغائب الوحيد عن المشهد هو «بابا نويل»، ربما لأنه بذقنه البيضاء شديد الشبه بالملالي في إيران.